جامعة تلمسان

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم الآثار السنة الجامعة: 2023 – 2024

المستوى : السنة الثالثة السداسي : الثاني التخصص: الآثار الإسلامية

عنوان المقياس: حلقات البحث

أستاذ المادة: أ.د بلحاج معروف

Email:archeomarouf@gmail.com

عنوان الدرس: مدينتا تلمسان ومنصورة من خلال عبد الرحمن بن خلدون

مدينتا تلمسان ومنصورة من خلال عبد الرحمن بن خلدون

1 – حياة ابن خلدون:

يعد "عبد الرحمان بن خلدون" عبقرية عربية متميزة، لـ قد كان عالًما موسوعًيا متعدد المعارف والعلوم، وهو رائد مجدد في كثير من العلوم والفنون، فهو المؤسس الأول لعلم الاجتماع، وإمام ومجدد في علم التاريخ، وأحد رواد فن "الأتوبيوجرافيا" . فن الترجمة الذاتية . كما أّنه أحد العلماء الراسخين في علم الحديث،.

ولد "ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خالد (خلدون) الحضرمي" بتونس في رمضان 732هـ/ مايو 1332م، ونشأ في بيت علم ومجد عريق، فحفظ القرآن في وقت مبكر من طفولته، وقد كان أبوه هو معلمه الأول، كما درس على مشاهير علماء عصره، من علماء الأندلس الذين رحلوا إلى تونس بعدما ألم بها من الحوادث، فدرس القراءات وعلوم التفسير والحديث والفقه المالكي، والأصول والتوحيد، كما درس علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة وأدب، ودرس كذلك علوم المنطق والفلسفة والطبيعية والرياضيات، وكان في جميع تلك العلوم مثار إعجاب أساتذته وشيوخه.

ومن أبرز هؤلاء الأساتذة والمشايخ: محمد بن عبد المهيمن الحضرمي، ومحمد بن سعد بن برال الأنصاري، ومحمد بن الشواشي الزرزالي، ومحمد بن العربي الحصايري، وأحمد بن القصار، ومحمد بن جابر القيسي، ومحمد بن سليمان الشظي، ومحمد بن إبراهيم الآبلي، وعبد الله بن يوسف المالقي، وأحمد الزواوي، ومحمد بن عبد السلام وغيره.

وكان أكثر هؤلاء المشايخ تأثيرا في فكره وثقافته: محمد بن عبد المهيمن الحضرمي، إمام المحدثين والنحاة في المغرب، ومحمد بن إبراهيم الآبلي الذي أخذ عنه علوم الفلسفة والمنطق والطبيعة والرياضيات

اتجه إلى الوظائف العامة، وبدأ يسلك الطريق الذي سلكه أجداده من قبل، والتحق بوظيفة كتابية في بلاط بني مرين، ولكنها لم تكن لترضي طموحه، وعينه السلطان "أبو عنان فارس المريني" . ملك المغرب الأقصى . عضًوا في مجلسه العلمي بفاس،لكن سرعان ما انقلبت

الأحوال حينما بلغ السلطان "أبو عنان" أن "ابن خلدون" قد اتصل بأبي عبد الله محمد الحفصي . أمير "بجاية" المخلوع . وأنه دبر معه مؤامرة لاسترداد ملكه، فسجنه أبو عنان، وعلى الرغم ما بذله ابن خلدون من شفاعة ورجاء فإن السلطان أعرض عنه، وظل في سجنه نحو عامين حتى توفي السلطان سنة 759هـ/ 1358م.

لما آل العرش إلى "أبي سالم أبي الحسن" صار ذا حظوة ومكانة عظيمة في ديوانه، فولاه السلطان كتابة سره والترسيل عنه.

وظل "ابن خلدون" في تلك الوظيفة لمدة عامين حتى ولاه السلطان "أبو سالم" خطة المظالم، فأظهر فيها من العدل والكفاية ما جعل شأنه يعظم حتى سعى أقرانه بالوشاية بينه وبين السلطان حتى تغير عليه.

فلما ثار رجال الدولة على السلطان أبي سالم وخلعوه، وولوا مكانه أخاه "تاشفين" بادر "ابن خلدون" إلى الانضمام إليه، فأقره على وظائفه وزاد له في رواتبه.

ولكن طموحه كان أقوى من تلك الوظائف؛ فقرر السفر إلى "غرناطة" بالأندلس في أوائل سنة 764هـ/ 1362م.

وفي "غرناطة" لقي "ابن خلدون" قدرًا كبيرًا من الحفاوة والتكريم من السلطان "محمد بن يوسف بن الأحمر" . سلطان "غرناطة" . ووزيره "لسان الدين بن الخطيب" الذي كانت تربطه به صداقة قديمة، وكلفة السلطان بالسفارة بينه وبين ملك قشتالة، وقد أدى ابن خلدون مهمته بنجاح كبير، فكافأه السلطان على حسن سفارته بإقطاعه أرضًا كبيرة، ومنحه كثيرًا من الأموال، فصار في رغد من العيش في كنف سلطان "غرناطة."

لكن لم تدم سعادته طويلا بهذا النعيم، إذ لاحقته وشايات الحاسدين والأعداء، حتى أفسدوا ما بينه وبين الوزير "ابن الخطيب" الذي سعى به بدوره لدى السلطان، وعندئذ أدرك أنه لم يعد له مقام بغرناطة بل و"الأندلس" كلها.

وفي تلك الأثناء أرسل إليه "أبو عبد الله محمد الحفصي" . أمير "بجاية" الذي استطاع أن يسترد عرشه . يدعوه إلى القدوم إليه، ويعرض عليه أن يوليه الحجابة وفاء لعهده القديم له، فغادر الأندلس إلى بجاية فوصلها في منتصف عام 766هـ/1365م، فاستقبله أميرها، وأهلها

استقبالا حافلا في موكب رسمي شارك فيه السلطان وكبار رجال دولته، وحشود من الجماهير من أهل البلاد.

ظل ابن خلدون في رغد من العيش مع السلطان حتى اجتاح "أبو العباس أحمد" . صاحب "قسطنطينة" . مملكة ابن عمه الأمير "أبي عبد الله" وقتله واستولى على البلاد، فأقر "ابن خلدون" في منصب الحجابة حينا، ثم لم يلبث أن عزله منها.

فعرض عليه الأمير "أبو حَمُّو" . سلطان "تلمسان" . أن يوليه الحجابة على أن يساعده في الاستيلاء على "بجاية" بتأليب القبائل واستمالتها إليه؛ لما يعلمه من نفوذه وتأثيره، ولكن ابن خلدون اعتذر عن قبول الوظيفة، وعرض أن يرسل أخاه يحيى بدلا منه، إلا أنه استجاب إلى ما طلبه منه من حشد القبائل واستمالتها إليه.

ولكن الأمور انتهت بهزيمة "أبي حمو" وفراره، وعاد "ابن خلدون" إلى الفرار من جديد بعد أن صار مطاردًا من كل حلفائه.

ترك ابن خلدون أسرته بفاس ورحل إلى الأندلس من جديد، فنزل في ضيافة سلطانها "ابن الأحمر" حينًا، ثم عاد إلى "المغرب" مرة أخرى، وقد عقد العزم على أن يترك شئون السياسة، ويتفرغ للقراءة والتصنيف.

أراد ابن خلدون العودة إلى "تونس" فكتب إلى أبي حمو يستأذنه ويرجو صفحه، فأذن له السلطان، فعاد إلى مسقط رأسه، وظل عاكفًا على البحث والدراسة حتى أتم تنقيح كتابه وتهذيبه، وخشي أن يزج به السلطان إلى ميدان السياسة الذي سئمه وقرر الابتعاد عنه، فعزم على مغادرة تونس، ووجد في رحلة الحج ذريعة مناسبة يتوسل بها إلى السلطان ليخلي سبيله، ويأذن له في الرحيل.

ووصل إلى الإسكندرية في شوال 784هـ/ ديسمبر 1382م فأقام بها شهرًا ليستعد لرحلة السفر إلى "مكة"، ثم قصد . بعد ذلك . إلى "القاهرة" ، فأخذته تلك المدينة الساحرة بكل ما فيها من مظاهر الحضارة والعمران، الخنقوات والمدارس.

وترك "ابن خلدون" منصبه القضائي سنة 787هـ/1385م بعد عام واحد من ولايته له، وما لبث السلطان أن عينه أستاذًا للفقه المالكي بالمدرسة "الظاهرية البرقوقية" بعد افتتاحها سنة 788هـ/ 1386م.

توفي رائد علم الاجول ماع العلامة المؤرخ عبدالرحمن ابن خلدون في 26 من رمضان 808هـ الموافق 16 مارس 1401م في القاهرة عن 69 عاما.

تبدو أصالة ابن خلدون وتجديده في علم التاريخ واضحة في كتابه الضخم "العبر وديوان المبتدأ والخبر" وتتجلى فيه منهجيته العلمية وعقليته الناقدة والواعية، حيث إنه يستقرئ الأحداث التاريخية، بطريقة عقلية علمية، فيحققها ويستبعد منها ما يتبين له اختلاقه أو تهافته.

2 – مدينة تلمسان:

تلمسان مدينة جميلة تقع أسفل كتلة جبلية تشرف عليها من الجنوب وهي عبارة عن سلاسل تتجه من الجنوب الشرقي إلى الشمال الشرقي، ويمتد إلى الشمال من المدينة سهل الحنايا الخصيب الذي يلتقي غربا بسهل لالة مغنية، وتتّصل المدينة بالبحر إلى الشرق عبر التافنة من خلال السلسلة الجبلية المعروفة باسم سبع الشيوخ، ويتميّز موقعها الجغرافي وتكوينها الجيولوجي بأهمية كبيرة حيث تلتقي فيه المياه السطحية بالمياه الجوفية التي تتفجّر في أماكن عدّة من المدينة وضواحيها في شكل وديان أو مجاري أو عيون غزيرة تنشر الخصيب فيكثر فيها الزرع والضرع، ومن أهّم عيونها عيون لوريت.

وتعدّ تلمسان حسب ابن خلدون قاعدة المغرب الأوسط ودار مملكة زناتة ومتوسطة قبائل البربر، ويعود الفضل في تأسيسها ووضع خططها إلى قبيلة بني يفرن الزناتية. ويؤكّد ابن خلدون أقدمية المدينة وتوغّلها في التاريخ، ولكّنه يعترف من جهة أخرى بجهله لتلك الفترة القديمة. وهنا لم يريد المرور مرّ الكرام عن تلك الأسطورة التي تدّعي وجود الجدار المذكور في القرآن في قصّة موسى عليه السلام مع النبي خضير في منطقة أغادير بتلمسان، والتي يريد من خلالها العامّة من الناس تأكيد أقدمية المدينة، ويفنّد ابن خلدون في هذه الرواية مستندا إلى عاملين :

أولهما: أنّ موسى عليه السلام لم يغادر بتاتا المشرق في اتجاه المغرب، ولم يرد في تاريخ الإنسانية حديث عن توسّع ملك بني إسرائيل نحو إفريقية (تونس)، فما بالنا بالمغرب الأوسط والأدنى.

ثانيهما: إنّ مثل هذه الروايات والأساطير كان يُقصد من ورائها إعطاء منزلة مرموقة ورفعة للمدينة أو البلد وذلك بانتسابها إلى شخصية فاضلة أو عالمة.

وعن تاريخ المدينة يؤكّد أنّ أقدم واقعة تاريخية اطّلع عليها كانت من خلال ما نقله ابن الرقيق ويتعلّق الأمر بوصول أبي المهاجر دينار إلى تلمسان أثناء ولايته على إفريقية ويبرهن على حقيقة وصحّة الخبر على تلك العيون المائية الواقعة على مقربة من المدينة والتي تحمل اسم عيون أبي المهاجر.

وفيما يخص لفظ تلمسان الذي أطلق على المدينة، فاللفظ في نظره أمازيغي على منطوق قبيلة زناتة، ويتركّب من كلمتين << تلّم >> و<< سان >> ومعناها تجمع بين اثنين البر والبحر.

وفي هذا الصدد يورد يحي ابن خلدون لفظا (تلمسن) لا يختلف في معناه عن اللفظ الأوّل، ولكنه يختلف في التأويل فيعتقد أنّ اللفظ يعني الجمع بين الصحراء والتل. بينما يقدم المقّري تفسيرا مغايرا للفظ تلمسان فيرى أنّها حرّفت من لفظ تلمشان الذي يتركّب من كلمتين تلم وشان وتعني ذات الشأن.

إنّ كلّ هذه التفسيرات للكلمات المكّونة للفظ تلمسان كلّها تؤكّد استراتيجية موقع المدينة الذي يربط طرق الاتصالات الكبرى الممتدة من الشرق إلى غرب المغرب ومن البحر إلى مرسى هنين ووهران وغيرهما وإلى الجنوب.

2 -1 - تلمسان الإدريسية :

ويعود عبد الرحمن بن خلدون ليذكّرنا بفترة هامّة من تاريخ المدينة، ويخبرنا بدخول إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن إلى تلمسان دون حرب سنة 174 هـ حيث استقبله أميرها حينذاك محمد بن خزر بن صولات ودخل مع قبيلتي مغراوة وبني يفرن تحت لوائه، وأثناء مكوثه فيها شّيد مسجدا جامعا وأقام فيه الخطبة وبعد شهور عاد إلى المغرب الأقصى وولى أمرها أخاه سليمان بن عبد الله ، وبعد أن اعتلى إدريس الثاني العرش اتّجه نحو تلمسان سنة 199 هـ، واستقّر فيها مدّة ثلاث سنين ثّم رحل عنها وترك أمرها بيد ابن عّمه محمد بن سليمان ، وهنا يطلعنا صاحب العبر عن أهّم الأعمال التي قام بها إدريس الثاني في تلمسان أثناء إقامته فيها وتتمثل في إصلاح جامع أغادير وترميم منبره. وبعد وفاة إدريس الصغير اقتسمت مملكة الأدارسة ومن ضمنها تلمسان بين بنيه.

2 – 2 – تأرجح تلمسان بين الفاطميين وأمويي قرطبة:

ولما انقرض ملك الأدارسة، آل أمر تلمسان إلى أيدي الفاطميين بعد أن تغلّب موسى بن أبي العافية عامل الشيعة الفاطميين سنة 310 هـ على أميرها آنذاك الحسن بن أبي العيش بن عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان الذي فرّ إلى مليلة وتحصّن في إحدى حصون منطقة نكور.وقد ظلّت أحوال المدينة في اضطراب بسبب ذلك النزاع بين الفاطميين وأمويي قرطبة، ويُفهم من كلام ابن خلدون أنّ مدينة تلمسان كانت تتأرجح بين التحالفين، وعليه قرّر أهالي تلمسان بقيادة يعلى بن محمد اليفرني التحالف سنة 340 هـ مع السلطان قرطبة الناصر الأموي ودخلوا تحت دعوته، ولم يختلف الأمر بعد وفاة يعلى فقد بقيت المدينة بقيادة محمد بن الخير بن خزر تحت لواء الحكم القرطبي أيام المستنصر.

2 – 3 – تلمسان تحت حكم الصنهاجيين والمرابطين :

وقد دخلت تلمسان تحت حكم الزيريين بعد أن هلك أميرها في حروبه ضدّ قبيلة صنهاجة واستمرّ الحال على ذلك إلى أن انقسمت الدولة الزيرية إلى قسمين، حيث صار القسم الغربي من المغرب الإسلامي تحت إمرة زيري بن عطية الذي قام بغزو تلمسان بعد أن انتزع منه المنصور أمر المغربين الأوسط والأقصى، وفي سنة 396 هـ وُلي أمر تلمسان يعلى بن زيري وبقيت تحت حكم الحماديين إلى غاية سقوطها تحت سيطرة لمتونة بقيادة يوسف بن تاشفين الذي ولى أمرها لمحمد بن تينعمر ومن بعده أخيه تاشفين وفي هذه الفترة تعرّضت تلمسان للحصار من قبل السلطان الحمادي المنصور بن الناصر,

2 – 4 – تلمسان الموحدية :

وينقلنا ابن خلدون إلى فترة هامّة من تاريخ تلمسان والتي شهدت المدينة خلالها حركة نشيطة في العمران، إذ بعد أن قتل الموحدون معظم أهالي المدينة سنة 640 هـ ربّما كان ذلك ردّا على موقفهم السلبي اتجاه عبد المؤمن بن علي الذي يبدو أنّه أحسّ بالذنب فدعا الناس إلى إعادة إعمار المدينة وترميم ما فسد من أسوارها، وعيّن أحد مشايخ هنتاتة سليمان بن واندين واليا عليها، كما قام بالمواخاة بين سكان المدينة والموحدين فصارت مركزا للدعوة الموحدية في المغرب الأوسط.

ويشير ابن خلدون إلى ذلك الاهتمام الذي أولاه الموحدون لتلمسان لاتخاذها عاصمة منطقة المغرب الأوسط حيث قاموا بتحصينها وشّيدوا أسوارها وحثوا الناس على بناء الصروح والقصور وتوّسعت المدينة، ويُعدّ أبو عمران موسى بن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن الذي وُلي أمر تلمسان سنة 556 هـ من أعظم المهتمين بالبناء والتشييد حيث أحاطها بسياج من الأسوار وزاد في خطّتها، وربّما كانت هذه التحصينات التي زيد في تعزيزها وحفرت الخنادق من حوالي المدينة في عهد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن لمجابهة المعارضين للحكم الموحدي، ولا سّيما عند ظهور ابن غانية الميورقي في مسرح أحداث المغرب الأوسط .

وبفضل تلك التحصينات القوّية تمكّنت تلمسان من الوقوف أمام جيوش ابن غانية، وهكذا أصبحت أكبر معقل وأقوى قاعدة في المغرب الأوسط، لا سّيما بعد قيام الثائر المرابطي بتخريب المدينتين الهامتين تيهرت وأرشكول اللتين كان لهما دور كبير في تمكين حكم ملوك الدول السالفة.

2 – 5. – تلمسان الزيانية:

ويذكر ابن خلدون أنّ تلمسان لّما آلت إلى بني زيان وأصبحت عاصمة لملكهم ومقّر سلطانهم، شّيدوا فيها القصور الأنيقة والمنازل الجميلة واغترسوا البساتين ومّدوا خلالها قنوات المياه، وصارت من أعظم حواضر المغرب الأوسط فقصدها الناس من كّل الأقطار، فعمرت أسواقها ونشطت الحركة العلمية فيها ونشأ في مدارسها عدد كبير من العلماء الذين بلغت شهرتهم الآفاق، وهكذا نافست تلمسان في نظر ابن خلدون حواضر العالم الإسلامي وضاهت حتى عواصم الخلافة.

3 – مدينة المنصورة :

تقع مدينة المنصورة في غرب مدينة تلمسان على بعد مئات الأمتار وتمتّد بين سلسلة جبال بودغن جنوبا والسكة الحديدية شمالا، وقد تأّسست هذه المدينة في ظروف تاريخية خاصّة حيث كانت نتاج ذلك الصراع المتواصل بين الزيانين ملوك تلمسان والمرينيين ملوك فاس من أجل الاستحواذ على إرث الموحدين الذي يّدعي كّل واحد منهما أحقّيته بهذا الإرث.وبعد محاولات عديدة خاضها المرينيون في سبيل السيطرة على تلمسان ولم يتمكنوا من

اقتحامها، وعليه قرّر أبو يعقوب يوسف سنة 698 هـ/ 1299 م ضرب حصار طويل الأمد عليها، وهنا تفرض الظروف الطبيعية والسياسية على أبي يعقوب لإنشاء مدينة تأويه وجيشه خلال فترة الحصار الذي دام ثماني سنوات. وعلى حسب المصادر التاريخية فإن تأسيس المدينة تّم على فترتين مختلفتين كانت بدايتها كما ذكرنا سابقا في عهد أبي يعقوب يوسف وتكملة بنائها كان أثناء حصار أبي الحسن المريني لتلمسان سنة 735 –737 هـ.

3 – 1 – المنصورة في عهد أبي يعقوب يوسف :

يصف المؤرّخ ابن خلدون أخداث بناء وعمارة مدينة المنصورة فيذكر أنّ السلطان المريني أبايعقوب شّيد قصرا في الموضع الذي ضرب فيه فساطيط معسكره وبنا بعد ذلك مسجدا لأداء الصلوات ثّم أحاط كل من القصر والمسجد بسور، وبنى الناس من حواليهما الدور والمنازل والقصور والبساتين وشقوا الترع وبنوا القنوات. ويخبرنا صاحب العبر أنّ السلطان المريني أضاف إلى مدينته الجديدة منشآت أخرى فيشير إلى أنّ السلطان أحاط سنة 702 هـ العمران بسور ضخم ووزاد في بناء بعض المرافق العاّمة من حمامات وماريستان وجامع كبير يمتاز بمئدنته المرتفعة ليصبح بذلك من ضمن أعظم مساجد المغرب الإسلامي .

لقد صارت هذه المدينة حسب ابن خلدون في فترة زمنية وجيزة تضاهي في عظمتها المدن إسلامية الأخرى المعاصرة لها وذلك لاتّساع رقعتها وانتشار عمرانها وازدهار تجارتها واستحكام تحصيناتها، وقد بلغ صيتها إلى كلّ البلدان فتوافد نحوها التجار من كل حدب وصدوب، وقجمت رسل الحفصيين ومصر والشام محّملة بالهدايا.

وأّما بالنسبة لتسمية المدينة الجديدة فيذكر ابن خلدون اسمان في موضعين مختلفين، ففي أحدهما يشير إلى أنّ السلطان أبو يعقوب يوسف أطلق على مدينته الجديدة اسم المنصورة وذلك تيمنا وتبركا بالنصر على أعدائه التقليديين بني عبد الوادي، وفي الموضع آخر نجد تسمية البلد الجديد.

ويطلعنا ابن خلدون على حقيقة مرّة وهي هدم منشآت المدينة من قبل الجيوش الزيانية بعد رحيل بني مرين عنها سنة 706 هـ.

3 – 2 – المنصورة في عهد أبي الحسن المريني:

لقد تطرق ابن خلدون إلى إعادة إعمار مدينة المنصورة وإحياء معالمها من جديد عندما ضرب أبي الحسن المريني حصارا على مدينة تلمسان دام عامين 735 – 737 تمكن على إثره من اقتحام أسوارها باستخدام تكتيك حربي نقله إلينا صاحب العبر ويتمثل هذا التكتيك الحربي في بناء أبراج ثّم رمي العدو منها بالنبال وعند تقهقرالعدو يشيّد برج آخر متقدما وهكذا إلى أن وصل إلى الخندق الذي يحيط بالمدينة، وهناك بنا برجا أخيرا تمكّن من خلاله اقتحام أسوار تلمسان بعد دكّها بالمنجنيق .

الخاتمة:

لقد جاءت المعلومات التاريخية التي نقلها إلينا ابن خلدون مرتبة حسب تسلسلها الزمني، ولكن ما يمكن يؤخذ عليه مبالغته في إضفاء العظمة على مدينة المنصورة وإعلاء شأنها إلى جدّ مقارنتها بالمدن الإسلامية العريقة الموغلة في التاريخ على الرغم من تلك الظروف العصيبة التي نشأت فيها.